خطيبتي

بقلم الأستاذ محمد السيد

حدث صديق فقال : نشأ جدي رحمه الله في ريف مصر ذا ثروة متوسطة، من أبوين مسلمين. وكان شغوفا بالنساء ، كلفا بهن ، غير أن مدينيه والزمان والمحيط اللذين كان يعيش فيهم . كل أولئك ، ما كانت تسمح أن تكون له بالنساء علاقة أثيمة، أو صلة غير شريفة، وهو أبداً يحبس في عصمته زوجات أربع ، حتى اذا ماتت إحداهن أو نبت عنها رغبته استبدلها بأخرى .

وقد ورث عنه والدي هذه العادة، أو هذا الداء الوبيل على الأصح. غير أن الزمان كان قد تغير، وظروفه ما كانت تساعده على مجاراة المرحوم والده في هذا المضمار، فكان يكتفي أن يستبدل زوجا مكان زوج كلما أراد، أو عنت له رغبة . وقليلا ما كان يجمع بين الاثنتين — وأنت تستطيع أن تدرك كيف تعيش عائلة من متوسطي الحال ، قوامها رجل له أولاد هم ٥ أو ٦ أو ٧ أو ٨ أو ٩ مثلا ، مع زوج ليست أم واحد منهم : تستطيع أن تعرف هذا وتعرف ما يلاقيه هؤلاء الصبية والصغار من امرأة قضى الزمان أن تكون على شئونهم جميعاً، وهي لا تكن لهم أية عاطفة من حب أو حنان أو شفقة . بل أنت تستطيع أن تعرف ماذا تكن زوج الأب لأولاده في أعماقها ، وما تحمل لهم في صدرها من غل وضغينة، وليس لهم في ذلك من إثم ولا جريرة ، إلا أنهم كانوا أبناء لذلك الذي وإن خلقه الله على هيئة الناس الا أنه بلا قلب خلقه .

قال الراوي: وما كانت لنا حيلة في هذا غير مصانعة الزمان، والنزول دائماً عند مشيئة زوج أبي ، حتى اذا سكنا الى مصاحبة هذا الداء ، وألفنا هذا الشر رماناً رحمه الله بمصيبة أخرى ، هي أنه استبدل زوجه بأخرى غيرها ، وهكذا دواليك فلم تكن لهذا الرجل أية عاطفة نحونا كأبناء لسنا أبناءه . لم يفكر يوماً في تعليمنا أو تربيتنا، بل تركنا هكذا كلأ مباحا ، ورعية من غير راع ، بل ونهباً مقسما للزمان وصروفه العجيبة ، يتعلم منا من شاء ، ويلعب منا من تريد — ولا أطيل عليك . فلقد شببت أنظر الى الدنيا من خلال « عوينات » سود لا أحب

الناس، ولكن أبغضهم، أوعلى الأقل أنظر اليهم كأنهم أعداء يريدون بي السوء، ويضمرون لي الشر، ليس لي في واحد منهم أي أمل.

وكان لي زميل مدرسة، من نعمة الله عليه أن له أما ولد أبا يعيش بينهما وفي كنفهما سعيداً مغتبطا بالحياة راض عنها كل الرضاء — وكنا نقضي كل أوقات الفراغ في منزله نذا كر دروسنا أو نتكلم ولا نلعب، فلم يكن لي إلى المرح واللعب حتى وأنا طفل أية رغبة، وأنا دائماً محزون. وكان زميلي لطيبة قلبه يفضل الجلوس معي على أن يشترك مع الآخرين في لهوهم ومرحهم.

وكانت له أم تصلي وتصوم: وهذه المرأة الصالحة كثيراً ماشملتني بعطفها ورعايتها، فهي تعرف أني يتيم «وإن كان والدي على قيد الحياة» فهي تحبوني مما تخبئه لابنها البكر من أصناف المغريات المفرحات، وفي أيام الاعياد والمواسم، تجتهد دائماً في أن أكون معهم، وكأني واحد من أبنائها — وكنت هادىء الطبع رزينا أحسب لكل شيء حسابه، أبدو عاقلا تكلف صفات الرجال وأعمالهم، وكانت تكبر في هذا وتقدره، حتى اذا سنحت لها فرصة كانت تطرى شمائلي وتحمد لي خصالي. فأنا رزين، عاقل، طيب الخلق، تتمنى لو بلغت مبلغ الرجال فتزوجني من ابنتها العزيزة «س»

وابنتها «س» هذه مؤدبة، أحسن أبواها تربيتها، ثم حجزاها في المنزل تتعلم القرآن، وكانت تجيد تلاوته وترتيله. وهي دائماً في البيت لاتخرج الا لشأن، ومع أبيها أو أمها.

لم أكمل دراستي بل قطعها أبي علي وألحقني في وظيفة حكومية، فلما أصبحت ذا ايراد، ولي في الدنيا مستقبل، تهافت علي الناس بعد أن كانوا عني معرضين. وهذا أبي يحترمني الآن، وها زوجتاه تتنافسان علي، كل تريدني زوجاً لاحدى قريباتها، ولكن متى كان العدو حبيباً.. ومتى كانت زوج أبيك تحب لك الخير إلا أن تكون فيك طامعة ؟؟

وكنت أتردد على بيت صديقي الذي استمر يطلب العلم. فما أن تلقاني أمه حتى تعيد على القصة المعلومة — فهي تحبني وتحب لي الخير كله. ولهذا، تود لو أتزوج من ابنتها (س) وأنا من جانبي أقدر لها هذه العاطفة وأ دعا عليها، وأرجو الله أن يوفقني لهذا، فتزعم أنها اختارتني وإن كان خطاب ابنتها (بالعشرات) فهي راغبة عنهم في، فان أكن ذا مرتب صغير إلا أني مستقيم الحال نقي السيرة — فهي لهذا ولأنها ستضيفني نهائياً لقائمة أولادها، فأصبح لها صهراً وابناً في وقت واحد — تفضلني — ثم وهي بذلك تكون جد مغتبطة. وأما «الفلوس» فلا

أهمية لها ، والموجود يكفى أو « بلاش خالص » فهى فى بسطة من العيش وسعة من الرزق.

وكان لأبى رأى آخر. فأنا أستطيع تحت اسمه أن أتزوج من عائلة غنية، أو على الأقل ابنة أحد الموظفين الرؤساء حيث يهتم بى صهرى ويعمل لترقيتى فى وظائف الحكومة، فأكون قد تزوجت وضمنت لنفسى مستقبلا سعيداً فى آن واحد.

ثم تنهد صديقى وقال آه . لقد كنت أنظر إلى والدى لا كأنه والد، بل كأنه أحد الناس . فهذا الرجل الذى ما كانت تهمه فى الدنيا الا لذاذاته، ما كان يستحق منى — كابن — أى تقدير أو احترام. لهذا ما كنت أتقبل نصائحه، بل كنت أضيفها الى ما جبل عليه من الغطرسة وحب الرياسة والتحكم . هذا أبى، أما زوجتاه فقد قابلت قتراحاتهما ببرود وصمت، وأنا ولدت فى الريف ، ونشأت كما تعلم بعيدا عن أمى ، فلم يبق أمامى اذن غير هذه التى عرضتها أمها .

رحت أفتش جوانب نفسى، واعرض عليها ماقالت لى هذه المرأة . ثم أخذت أسائل نفسى أمن اللازم للانسان أن يتزوج؟ وتورطت فى لجج من البحوث والأقوال عميقة. ثم هى بالتناقض زاخرة مضطربة . وأخيراً رأيت أنه خير لى ولو نسبياً أن أتزوج ، فالزواج فى هذا الزمن، شر . . . و لكنه للاسف شر لابد منه، بهذا اقتنعت وعليه عولت.

إذن ليس ثمة مايمنع من أن أتزوج ، فأخذت أسائل نفسى، أهذه المرأة التى تعرض عليك يد ابنتها وتريدك لها . . جاً تفعل هذا عن عاطفة شريفة ؟ وكثيراً ما أجبت على هذا السؤال بالايجاب أو بالنفى : وأخيراً فلأفرض أنها ما كانت مدفوعة نحوى بعاطفة خير، بل تحب ابنتها وترجو لها السعادة، ومن هذه السبيل فقط فكرت فى: أليس فى هذا خيرا لى أنا الآخر ؟؟ ثم ماذا يضرنى أنا لو بحثت هى عن سعادة ابنتها، فنالتنى أنا أيضاً هذه السعادة عفواً وعن غير قصد؟

انتهيت إلى هـذا و إلى أن لا مانع من أن تكون هذه البنية زوجاً لى من هذه الناحيـة فقط ثم بعد ذلك عرض لى أمر آخر كان له من الأهمية فى نظرى الشأن الأول .

هل يجب على أن أبنى بمن أحب ؟ أم أن الحب ليس شرطاً أساسياً في الزواج ؟

أخير للعائلة أن تقوم على دعامات من الهوى وأساسات من الحب ؟ أم أن خير العائلة فى غير هذا ؟

ولقد كان من العسير حقاً على مثلى أن يجيب على هذه الأسئلة

فما الحب ؟ وما الزواج ؟ وهل بينهما صلة ؟ وهل هى متينة أم هينة ؟ عرضت لى هذه الأسئلة وغيرها كثير، وأصبحت هذه المسألة أعقد من ذنب الضب. فهذه الزوجة المقترحة لم أكن حتى

وقتئذ لك قد رأيتها وسمعتها، وأنا أستطيع أن أؤكد لك أن الانسان لا يحب (غيابياً) وأن ذلك الشاعر الذى يقول «والأذن تعشق قبل العين أحياناً» سخيف. ولكى تتأكد، فلنفترض أنك أحببت دون أن ترى، ثم رأيت بعد ذلك صاحبتك، وكانت قبيحة المنظر دميمة الخلقة، فماذا أنت صانع بحبك؟ وماذا أنت ملاق فيه؟ لا شك أنك تلاقى الحسرة والندامة ولا تجد الا الخيبة والفشل.

ثم مضى زمن كانت تتوارد على الخواطر السالفة. وأنا أجيب عليها إجابات تافهة، أو إجابات سديدة. لست أعرف. حتى كان يوماً انتهيت من بحثى هذا كله إلى أن علاقة الزواج وما يترتب عليها من نتائج، وما يربطها بالحياة العامة الشاملة من وشائج، تنتج الألفة التى قد يتولد عنها الحب الشريف الدائم الأبدى. وإذن فلأتزوج، وبهذا كاشفت (حماتى).

وفى ذات مساء ذهبت حماتى مع ابنها صديقى وزميل صباى وابنتها (العروس) وجارة لهم إلى المسرح، وكانت قد أوحت إلى أن هناك يكون الملتقى. تقابلنا هناك، وكان من حسن الطالع أو من سوئه، أن الرواية التى تمثل فى تلك الليلة (شهداء الغرام).

رأيت خطيبتى وإذا بها ليست جميلة، وليست دميمة لماذا تكون زوجى جميلة؟

لكى أسعد بها أو لكى أغنى بها عن غيرها: ولكن أليس الجمال فتنة؟ وأن الجميلة قد تسبب لك آلاماً كثيرة، ومتاعب مضنية حتى ولو من ناحية أنها تشعر بجمالها، فتكون دائما مدلة ودائما متعاظمة؟

ثم أليس الجمال بين الناس قدراً مشتركاً؟ وأنت تستطيع أن تزعم أن هذه التى تحب أو التى لك بها غنية جميلة. الخيرة فيما اختاره الله وخير الأمور الوسط.

لم تكن لدى نقود أتقدم بها لهذه العائلة كزوج لابنتهم، أو حتى كخطيب، فظللت بضعة أيام دائم التفكير فى هذا. وأخيراً وفى ذات صباح وأنا أطالع (الصحيفة) فى طريقى للديوان قرأت فى الأخبار المحلية أن الوزارة قررت اعتبار مبدأ ماهيتى وزملاء لى نحو الخمسين، بزيادة جنيهين شهريا، وكان من حسن الحظ أن هذا القرار انسحب على سنة ماضية. فصرفت فى اليوم الثانى مبلغاً لا بأس به، اشتريت به (شبكة) لخطيبتى وقدمتها اليها.

ومنذ هذا اليوم بدأت العلاقات تتطور إلى تآلف، وأكثرت من الذهاب إلى منزل أصهارى والمكث عندهم، وكانت حماتى تتودد إلى بكل السبل، وتتحبب إلى نفسى بكل الوسائل. فما كانت تدع فرصة إلا انتهزتها فتظهر لى عطفها وحنوها، بل وحبها كأم، فحمدت الله على أن عوضنى ولو أخيراً أهلا أحبهم وأسكن اليهم.

وكانت حماتى تستعجل دائماً عمل العقد ، حتى تفرح. فهى إلى الآن لم تجد فرصة تفرح فيها مطلقاً ، وكانت دائماً تستحثنى، بل وتلحف إلحافاً شديداً. وتحت تأثير هذا الضغط ، اضطررت إلى اللجوء لوالدتى أستعير منها الصداق ، وانتهزت فرصة غياب والدى باسكندرية وأتممت عملية العقد الرسمى.

لم يكن بجانبى والد ولا والدة : فأبى فى البلد وأبى فى الاسكندرية .. وبالأحرى لم يكن بجانبى أو لم يكن لى من يرشدنى إلى ماهو الواجب فى مثل هـذه الظروف. وأنا لم أكن قد تزوجت قبل الآن ، ولم يكن فى بيتنا أحد قد تزوج، حتى كنت أستطيع أن أعرف ماهي العادات فى مثل هذه الظروف والأحوال .

ولا أكتمك، فأنا لم أتحف العروس بالهدايا من جميع الاصناف والاشكال كما هى عادة المصريين ، ولم أشتر لها (سمكا) ولا (فاكهة) ولاجوارب، ومناديل ، أوأحذية ، أوماإلى ذلك مماهو عادة مألوفة وسنة مقررة . . غير أنى أذكر أنى فى العيد أهديتها ساعة ذهبية.

كان هذا العمل من جانبى بمثابة إطلاق قنبلة في صدر حماتى ؛ فقد غضبت غضباً شديداً، فهى لم تزوج أحداً قبل هذه ولها صويحبات وصديقات يرغبن فى رؤية هدايا العريس والتمتع بعضها . . . هذه أشياء لا أعرفها، ولم أكن قد جربتها، إلا أنها أحفظت حماتى وأغضبتها ثم ازداد الغضب شيئاً فشيئاً حتي استحال إلى عداء مستحكم ، وبعد أن كانت ترانى ابنها البكر أصبحت لها من ألد الأخصام . لاحظت هذا وأعترف لك أنه آلمنى وأقض مضجعى .

كانت زوجتى أو خطيبتى من جهتها لاتهتم بشيء من هذا ، فهى تقابلنى مقابلة حسنة إذا ذهبت لمنزلهم ، وإذا غبت تسأل عنى .ولقد انتقل اليها ما كانت تعمله أمها معى من قبل ، وكنا نخرج فى بعض الأحيان نتريض ، منفردين أو مع غيرنا ، وكثيراً ما شكوت لها أمها، فكانت تختصر على أن فى أخلاق أمها شدة، وأنها من أهل زمان،وتطلب إلى فى إلحاف أن أنسى هذا ولا أعيره اهتماماً .

لـكن كيف لا أهتم ؟ والبيت كله والعائلة كلها . . . . . المرأة اللعينة الممقوتة، تتصرف فى الصغير والـكبير سواء . ولقد نتج عن هذا أن وازنت بين الحال والمستقبل، وقلت فى نفسى إن هذه المرأة تعاملك من الآن بهذه القسوة فاذا أصبحت زوجا لابنتها فانها لاشك تستعبدك ،أو على الأقل تنغص عليك عيشك . ولـكن ما ذنب هذه المسكينة ؟

كان مركز خطيبتى أو زوجتى فى غاية الدقة، فأنا لم أبن بها بعد ، وهى لا تستطيع أن

تظهر لأمها غير ماتحب وترضى . . . ثم هى تحاول أن ترضينا كلينا فلا تستطيع. آه .. يالله . . كم قاست هذه الضحية ، ضحية الأم الغبية . فى سبيل إرضائى والاحتفاظ برضاء أمها وحبها.

كان والدى قد علم بزواجى وساءه هذا الخبر أيما اساءة.

وفى ذات مساء كلمنى فى هـذا وفى أنى كنت غير موفق ، وأنه غير راض عنى .. وأنى لهذا لن ألقى إلا الخيبة والندامة. ولا أكتمك ياصديقى فلقد أنتجت معاملة حماتى القاسية أن أصبحت كلمات والدى لدى مقدسة، لها فى أذنى رنين وفى قلبى الاكبار والاحترام، وأيقنت أن الوالد مهما قسا على ابنه . ومهما أشقاه فى الدنيا، فهو على كل حال قطعة منه « إنما أولادنا أكبادنا تمشى على الأرض »

كانت النتيجة الحتمية لهذا أن فكرت فى شىء له خطره ، وما كان أقسى هذا الذى فكرت فيه وأضناه ، بل ما كان أقتله لنفسى.

وفى أصيل يوم وقفت أمام والدى فى غرفة مكتبه أطيل النظر اليه، وهو يتلهى عنى بمراجعة بعض الأوراق ، و بعد فترة ليست بالقصيرة رفع بصره إلى وقال: ها أنت يا . . . ماذا عملت مع أصهارك ؟

لا شىء ياوالدى . أنا تحت أمرك يا أبى.

اذا كنت ابنى حقيقة فلا تصاهر هذه العائلة.

وكانت هذه الجملة كأنها خنجر قد صوب الى قلبى مباشرة .

ثم كيف أتخلص ؟ لقد كان ما كان . . لم أستشر أحدا ، ولم أتفاهم مع أى إنسان ... حتى هذا الذى حرضنى لم اتبين رأيه الكامل فى الفروع والتفاصيل . حقاً لقد كانت قسوة.

وفى المساء ذهبت الى (المأذون) وطلبت اليه إجراء الطلاق . فما كان اسرعه الى إجابتى، وهو لايعرفنى ، حتى لقد استأجر بنفسه شهوداً لمعرفتى نقدتهم على شهادتهم أجراً. ثم ماذا اقول ؟ فوالله لو وكل هذا الامر الى من هم أكبر نفساً من هؤلاء لكان هذا فى خير العائلة وسعادتها.

اذن فقد طلقتها ، ثم شجر خلاف امتد الى المحاكم الشرعية والاهلية ، حتى محاكم الجنح أيضاً . ولقد ظل هذا النزاع أكثر من عشرين شهراً فى دور المحاكم ، ولست أبالغ اذا قلت إنى تلقيت من هذه المرأة القاسية درسا أشد قسوة من هذا التقاضى الذى طال امده وتشعبت فروعه . وأنا ما أزال فتى فى مقتبل الشباب .

واخيراً طلبنا القاضى الشرعى: أنا وهى (زوجتى)، فذهبنا نحن الاثنين نبكى. ولقد كان

منظراً مؤلماً للغاية أن ترى عروسين فتيين يبكيان فى ساحة المحكمة بدل أن يفرحا و يمرحا فى بحبوحة الأمل بالمستقبل السعيد . وعرض علينا القاضى الصلح، ولـكن بعد فوات الوقت فأبيته . قائلا : لا ياسيدى لقد رحت تحكمت الجنح ، وهذا المتزافع عنى قد أهين وديست كرامته بسبب هذه . لا لا يا سيدى لم يبق للصلح باب .

فأثبت القاضى الطلاق وكان هذا فى مايو سنه ١٩٢١

وقمت بالاجازة السنوية ، وسافرت لبلدنا فى يونيو الذى يليه ، و بعد ايام قرأت فى إحدى الصحف الصباحية خبر وفاة المرحومة زوجتى (سابقا)

فهل ترانى أؤدى واجب العزاء ؟

لقد أديته ! ! !

محمد السيد

كامل كيلانى

(بقية المنشور على صفحة ٧٤٤)

الاثر فى نشأته على هذه الارادة الحديدية التى تذلل له المستحيل . كما أستطيع أن أؤكد أن لهذا الهواء الجبلى ايضاً اكبر الأثر فيما يراه بعض الناس لأول وهلة فى وجه الاستاذ كامل، فيظنونه كبراً أ[illegible] وما هو بشيء من ذلك . واذا كان لا بد للناس من معرفته فاننا نؤكد أنه هو هذا الهواء الجبلى مضافا الى مافى الاستاذ من خيال الشعر المكبوح، فان كاملا لو ترك كما خلقه الله لكان شاعراً عبقرياً . ولكن مازال يطلع على الكتب، و يستوعبها حتى غلب عليه العلم . ولعل استعداده الشاعرى الى جهاده العلمى ، هما اللذان طبعا أسلوبه الكتابى هذا الطابع الذى أسميه . « الاسلوب البرقى » وأعنى به أنه الاسلوب الذى لا أثر فيه للفضول ولا للثرثرة اللذين هما الداء المتفشى فى ادب اكابر الكتاب العصريين . إن لهذا الهواء الجبلى الذى يتمتع فيه الاستاذ كامل كيلانى ولهذه الفطرة الشاعرة التى خلقت فيه على أكمل ما تكون الفطرة اصفاء و نقاء ، يرجع ما فى طبع الاستاذ من رقة ووفاء وإيثار ورحمة للضعفاء والاقرباء والاصدقاء والمعارف . كما يرجع مافيه من عنف وشدة و بطش وجبروت ، على الذين يناوئونه اللدد والخصومة — كانت ما كانت مراكزهم — وعلى المتكبرين والادعياء .

محمود أبو الوفا